الحلول والاتحاد في الأدب الصوفي:

بعد تعرفنا في المحاضرة السابقة على قضية وحدة الوجود في الأدب الصوفي، سنتعرف من خلال هذه المحاضرة على قضية أخرى عبّر عنها الصوفي في تجربته الصوفية، معبرا عنها بلغته الرمزية الإشارية.

عناصر المحاضرة:

- **الحلول: لغة واصطلاحا**
- **الفرق بين الحلول والاتحاد**
- **القول بالحلول والاتحاد في الفكر الصوفي:**
- **تجلي الحلول والاتحاد في الأدب الصوفي:**

أولا/ الحلول:

لغة:

جمع حل وهي من أصل الفعل حلّ ومنه يُحل ويحل حلا وحلولاً ومنها حل المكان حل المكان أي نَزَل به كاحتله وبه فهو حال[1] ومنه الحلول وهو اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر[2]

اصطلاحا:

هو الزعم بأن الإله قد يحل في جسم عدد من عباده، أو بعبارة أخرى أن اللاهوت يحل في الناسوت[3] ويقصد أصحاب الحلول بهذا القول أن الله وجل قد حل في كل الكون في الشجر والحجر والإنسان والحيوان والبحر والجبل والمنخفض.

الاتحاد:

لغة:

من الفعل الثلاثي وحد يقول بن فارس: الواو والحاء والدال: أصل واحد ومنه آحاد وأُحدان واستأحد واتحد يدل على الانفراد،[4] ومنه اتحد بمعنى انفرد والشيئان أو الأشياء صارت شيئا واحدا[5].

اصطلاحا:

عرفه الجرجاني بقوله: الاتحاد هو تصيير الذاتين واحدة و لا يكون إلا في العدد من الاثنين فصاعدا، في الجنس يسمى مجانسة و في النوع مماثلة و في الخاصة مشاكلة و في الكيف مشابهة وفي

الكم مساواة وفي الأطراف مطابقة وفي الإضافة مناسبة وفي وضع الأجزاء موازنة يعني أنه في حالة الاتحاد قد يفقد الشيء بعض أوصافه الذاتية أو بعض خصائصه فيتحد في غيره فيكون فيه الذاتان متداخلتين، فهو إذن اختلاط وامتزاج الخالق بالمخلوق، فيكونا بعد الاتحاد ذاتا واحدة، وهو عند يزيد البسطامي أن الإنسان يتحد بالله، وفي حالة الإتحاد قد يفقد الشئء ذاتيته أو بعض أوصافها أو خصائصها، وفيه تكون الذاتان أكثرا تداخلا وأكثر قربا.. وهو في المفهوم الصوفي الشعور بفناء الصوفي في الله واتحاده به في لحظات الفناء...

الفرق بين الحلول والاتحاد

وأما الفرق بين الاتحاد والحلول، فقد اختلف في ذلك فريقان، فالفريق الأول يرى بإن الاتحاد كاتحاد الماء باللبن، وأما الحلول فكحلول الماء في الإناء، والحلول يعني وجود شيء داخل شيء آخر دون أن يفقد أحدهما طبيعته أو هويته أو ذاتيته أو ماهيته فتحل الذات الإلهية في الذات الإنسانية فيحل على حد تعبيرهم اللاهوت في الناسوت، أما الاتحاد فيكون أكثر قرباً وامتزاجاً وتداخلاً، وقد يفقد الشيء الممتزج ذاته أو بعض صفاته وخصائصه وهذه العقيدة تعني أن االله قد يحل في مخلوقاته .ويكون هو جزء من أجزاء الإنسان..

ونجد فريقا آخر يرى بأن الحلول والاتحاد متفقان في المعنى، فالحلول عندهم اتحاد الله بخلقه، والاتحاد عندهم حلول الله بخلقه...

القول بالحلول والاتحاد:

أول من قال بالحلول والاتحاد قبل الإسلام هم النصارى قالوا: إن الله حل في عيسى فقالوا: عبارتهم المشهورة حل اللاهوت في الناسوت، وحين ترجمت كتب الديانات الأخرى تأثر فلاسفة المسلمين بهذا القول ونقلوه إلى المسلمين وأول من قال بالحلول والاتحاد في الإسلام المتصوفة فكانوا يقولون للمنقطع عن الدنيا المتوجه إلى الله تعالى قد يتحد مع الله تعالى، وأخذوا هذه الفكرة من رهبان النصارى لأنهم يجلسون داخل دور العبادة ويتفرغون لها،فتسرب إلى المتصوفة من هؤلاء هذه العقيدة ولكن ليس كل المتصوفة يقولون بهذه العقيدة فمنهم من اثبت صفة العلو للرحمن مثل عبد القادر الجيلاني ومنهم من اعتقد بفكرة الحلول وأول من أعلن هذه الفكرة منهم هو الحسين بن منصور الحلاج، وهنا نجد التصوف قد خرج من عباءة الاسلامي، معتنقا أفكارا فلسفية نادت بهذه الاعتقادات.

تجلي الحلول والاتحاد في الأدب الصوفي:

يرى الحلاج (309هـ922 - م) أن الله هو الحب وأن الإنسان صورة لذاته، يعاني من شدة حبه الله وتعلقه به، إلى أن يصل إلى الاتحاد بالإرادة الإلهية. ومن المرجح أن مذهب الحلاج من خلال أفكاره كان حلوليا ... ولفظة الحلول تقابل عقيدة التجسد المسيحية

وقد ورث الحلاج هذا المذهب عن أستاذه الجنيد، وقد اتهم من قبل السلطات السياسية والدينية في بغداد بالزندقة والإلحاد بسبب غلوه في أدائه، فأعدم" .ذلك أن تصوره للاتحاد باالله، وكذلك أفكاره عن الرسالة والكرامات التي كان يظهرها، كل هذه الآراء جعلت الأوساط الصوفية والفقهية والسياسية تدينه" أما سبب إعدامه فيرجع إلى أنه قال: "أنا الحق"، وهذا يعد كفرا وزندقة لأن الحق هو االله، فأفتى القاضي بقطع رأسه ونفذ الخليفة هذا الحكم. وقد عارض بعض الصوفية إعدامه معتقدين أن الحلاج قال هذا الكلام وهو في غيبوبة. أما لويس ماسينيون (Louis Massignon) الذي كرس حياته في دراسة الحلاج فقد جعله من أكبر شهداء الرأي، ولم يفرق هذا المستشرق الفرنسي بين الرأي والزندقة.

وقد تجلت هذه العقيدة في أشعار ونثر معتنيقها، مثل الحلاج، حيث وردت في أبيات له، يقول:

أنـــا مـــن أهـــوى ومـــن اهـــوى أنـــا نحـــــن روحـــــان حللنـــــا بـــــدنا
فـــــــإذا أبصـــــــرتني أبصـــــــرته وإذا أبصـــــــــــرته أبصـــــــــــرتنا[6]

وقد زعم أن من تهذب بالطاعة، لا يزال يصفو عن البشرية، حتى يحل فيه روح الله، الذي كان في عيسى عليه السلام، فلا يريد شيئا إلا كان. ويقول:

ســـــبحان مـــــن أظهـــــر ناســـــوته ســـــر ســـــنا لاهوتـــــه الثاقـــــب
ثم بـــــدا في خلـــــــقه ظاهـــــرا . فـــي صـــــورة الآكـــــل والشـــــارب
حتى لـــــــقد عايـــــنه خـــــلقه كلحظـــــة الحاجـــــب بالحاجـــــب[7]

وقد زعم أن الله حل فيه، وكان يرسل رسائل إلى أصحابه على أنه هو الله تعالى، وفي كتبه شيء كثير من هذا، فهو محل إجماع عند أهل العلم أنه يقول بالحلول، وكان يقول: " إني مغرق قوم نوح، ومهلك عاد وثمود"، وله الجملة المشهورة: "أنا الحق"

ويروي الطوسي عن سهل بن عبد الله التستري قوله، وقد سئل عن سر النفس، فقال: "النفس سر ما ظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا فرعون، فقال: أنا ربكم الأعلى"[8]. فهذا صريح في الحلول والاتحاد.

ويقول أيضا:

روحـــه روحـــي وروحـــي روحـــه مـــن رأى روحـــين حلـــت بـــدنا[9]

ويقول أيضا:

أنـــت الشـــغاف والقلـــب تجـــري مثـــل جـــري الـــدموع مـــن أجفـــاني
وتحـــل الضـــمير جـــوف فـــؤادي كحلـــول الأرواح فـــي الأبـــدان[10]

يبين الحلاج حالته فهو المحب والعاشق، فهو ومحبوبه شيئان متمايزان فكأنما ليس بينهما فرق، يحل البعض مكان البعض، وكان ملك البعض ملك للآخر، وروح المحب هو روح المحبوب، فالمحب هو المحبوب نفسه وبعكسه، فهما شيئان مختلفان يحل بعض في بعض كحلول الروح في البدن.

ويقول أيضا:

ســـبحان مـــن أظهـــر ناســـوته ســـرّ ســـنا لاهوتـــه الثاقـــب
ثـــم بـــدا فـــي خلقـــه ظـــاهرا فـــي صـــورة الآكـــل والشـــارب[11]

من خلال هذه الأبيات يظهر الحلاج استخدامه للمصطلحات الدالة على الحلول والاتحاد وهي: الناسوت واللاهوت، فهو هنا يقدس الله الي أظهر صفته الانسانية، فهذه الصفة سر من أسراره، فللناس اللاهوت والناسوت، كما أنّ لله اللاهوت والناسوت.

ويقول كذلك في الاتحاد:

جبلـــت روحـــك فـــي روحـــي كمـــا يجبـــل العنبـــر بالمســـك الفنـــق
فـــإذا مسّـــك شـــيء مسّـــني وإذا أنـــت أنـــا لا نفتـــرق[12]

ويقول في امتزاج الارواح:

مزجـــت روحـــك فـــي روحـــي كمـــا تمـــزج الخمـــرة بالمـــاء الـــزلال
فـــإذا مسّـــك شـــيئ مسّـــني فـــإذا أنـــت أنـــا فـــي كـــل حـــال[13]

فالحلاج الحلولي يعتقد بحلول المحبوب في المحب، دون أن يكون هناك امتزاج تام بينهما، وذلك إذا فنى العبد عن صفات العبودية، وحلت محلها صفات الربوبية، وحلوله هذا يعني أنه مهما بلغ

الإنسان من الصفاء والفناء عن نفسه في حالة الاتحاد فغنه مع ذلك يظل محتفظا بشخصيته، مثله في ذلك كمثل الماء إذا مزج بالخمر فإنه لا يصير خمرا مع هذا الامتزاج.

ولو ذهبنا نتتبع أقوالهم ما خلصنا لكثرتها، فما من إمام مشهور لديهم إلا ولديه شيء من هذا الكلام، إما بالتصريح، وإما بالإشارة والتلميح، لم يسلم من هذا إلا بعضهم كالمحاسبي، فهذه المعاني موجودة ظاهرة في كلامهم، لا يمكن إنكارها.

الإحالات: (المصادر والمراجع):

[1] انظر القاموس المحيط، تأليف: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، بدون طبعة، دار الكتب العلمية بيروت، 1284/1.

[2] المعجم الوسيط، تأليف إبراهيم مصطفى وغيره تحقيق/ مجمع اللغة العربية، دار النشر: دار الدعوة 194/1.

[3] المعجم الفلسفي: ص: 76

[4] انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس 90/6 ، وتاج العروس من جواهر القاموس 379/7 ، ولسان العرب 70/3.

[5] انظر المعجم الوسيط ، 1016/2.

[6] لويس ماسينيون، ديوان الحلاج، ص: 26.

7- ديوان الحلاج ص 30. وانظر: تلبيس إبليس، ابن الجوزي، ص 171. مصرع التصوف، البقاعي، ص178.

8- أبو نصر سراج الطوسي، اللمع، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص299.

[9] لويس ماسينيون، ديوان الحلاج، ص: 21.

[10] المرجع نفسه، ص: 25.

[11] المرجع نفسه، ص: 9

[12] المرجع نفسه، ص: 23.

[13] المرجع نفسه، ص: 17.